# الطيور الزجاجّية

يحيى سلام المنذري: قاصّ من سلطنة عُمان. له أربعُ مجموعات قصصيّة: **نافذتان لذلك البحر (١٩٩٣)، رماد اللوحة (١٩٩٩)، بيت وحيد في الصحراء (٢٠٠٣)، الطيور الزجاجيّة (٢٠١٠).**

**١– نقطة سوداء صغيرة.** اقشعرّ بدنُه؛ فقد رأى شعرًا خفيفًا نبت في ظهره. ارتعب. ماذا يفعل ليداري هذه الجريمة؟ كلّما دخل الحمّامَ وشاهد ظهرَه، رأى الشعرَ ينمو بوضوح. أصابه القرف، وقرّر ألاّ يكشف ظهرَه لأيّ شخص كان، بمن في ذلك أفرادُ أسرته. لكنّ الشعر نما بكثافة في يديه ورجليه وصدره وبطنه وأذنيه وأنفه، واختفى الشعر من ظهره، أما الأعضاء التي لا يستطيع مداراتها فقد نبتتْ فيها غاباتٌ سوداء. أصبح كائنًا خرافيّاً بدائيّاً يخرج من البيت ليمشي في شارع أسود، فيرى أنّ المشاة لا يغطّيهم شعرٌ كثيف، في حين تحوّل هو إلى نقطة سوداء صغيرة في هذا الكون. ومع مرور السنوات أصبح يشاهد ثلاثة طيور زجاجيّة تتراقص حول رأسه وتنقر ذاكرته، تاركةً فيها ثقوبًا تخرّ منها رعشاتُ حزن.

**٢– كرُات زجاجيّة.** قبل غروب الشمس كان مازن يلعب مع أصدقائه بالكرات الزجاجيّة الملوّنة. كان ضحكهم وصراخهم يتردّدان بين جدران الحارة وسمائها. لكنّ شيئًا حدث فجأةً، فشرخ ذلك كلّه: فقد سقط صحن من السماء على طائرين كانا يقفان على سلك كهرباء، ثمّ وقعا على رأس مازن. تحسّسهما، ورفع رأسه عاليًا، ليجد ريشًا يتطاير حوله وذَرَقًا يصبغ ملابسَه. غضب بشدّة وأصابه الحرج، وركض إلى البيت تاركًا أصدقاءه يضحكون. وفي طريقه سمع ضحكة متكسّرة صدرتْ من صاحب البقالة، الهنديّ «راج،» الذي كان يدخّن مع صديقٍ له. لم يتردّدْ مازن في شتم الجميع. وها هو يتذكّر بأنه كان منذ قليل مسيطرًا على اللعب؛ وكان يضحك معهم على زيت النارجيل الذي يتصبّب من شعر راج.

عند وصوله إلى البيت وجده مقفلاً، فازداد غضبًا. التفت يمينًا، وإذا بالفتاة الجميلة منى تمرّ لترى هيئته المزرية وريش الطيرين. شاهدها تبتسم بسخرية، فازداد غضبًا على غضب، لكنه انتهز الفرصة لرؤية مؤخّرتها. تذكّر أنه حاول مرارًا أن يكلّمها، لكنه كان يتراجع في آخر لحظة خوفًا من أن تصدّه.

حين فتحتْ أمُّه الباب استقبلته بغضب بعدما رأت مشهده المزري. سحبته كالخروف إلى الحمّام وغسلتْ رأسه. أخذ يفكّر: لماذا سقط الطائران على رأسه هو بالذات؟ فقبل أن يخرج كان يستحمّ ويغنّي أغنيةً سمعها من المذياع؛ والآن توبّخه أمه على وقوفه تحت أعمدة الكهرباء. ردّ بغضب أنّه دائمًا يقف هناك ويلعب بالكرات الزجاجيّة الملوّنة، ولم يحدث شيء. وبعد أن انتهت أمّه من غسل رأسه أجبرته على عدم الخروج في اليوم التالي عقابًا له. دخل الغرفة وفتح مجلة ليشاهد صورًا كثيرةً لنساء، ونسي الطائرين والكرات الزجاجيّة. نسي كلّ شيء.

**٣– بنت إبليس.** اقتلع مازن نفسه بصعوبةٍ من السرير بعد أن تأكّد من عياب أيّة مادّةٍ لزجةٍ ربما كانت «بنتُ إبليس» سببًا في خروجها. ثم تأكّد من عدم نبات الشعر في

جسمه. وقف متصلّبًا باتجاه السقف، ودار ثلاث دورات، ثم ارتمى مجدّدًا على السرير وسأل: «ما الذي حدث لي؟»

اليوم هو ثاني أيام عيد الفطر. دشداشتُه البيضاء الجديدة التي لبسها بالأمس تنتظر جسدَه من جديد. مشى بتثاقل ناحية طاقيته التي ملأها بالعيديّة؛ فرغم اعتقاده أنّه تجاوز سنّ الحصول على عيديّة إلا أنّ بعض أقاربه ما زالوا يناولونه شيئًا من النقود. أحسَّ بانقباض في صدره حينما حدّق في ثلاث زجاجات صغيرة خالية على الطّاولة الخشبيّة بجانب سريره. وبعد تردّد أخذ زجاجة وحدّق فيها كمن يتفحّص عيّنةً في مختبر تجارب، ثم تناول المجلة المصوّرة ودخل إلى الحمام وكأنه جنديّ أسير ارتمى داخل كهف مظلم.

**٤- أيّ يد ستمسك الحبل؟** أبو مازن عقد صفقة مع أحد معارفه من أجل زهق روح جدْي صغير. جاء الرجل حاملاً سكّينًا كبيرةً حادّة، وساطورًا لم يلتهمه الصدأ. ألقى التحيّة ثم خلع دشداشته ليكشف عن ظهرٍ مشعرٍ كثيف، فاشتعل الاستغرابُ في ذهن مازن: «يا لهذا الشعر!» خفق قلبُه خوفًا وقال في نفسه: «هل سأكبر فينبت لي مثلُ هدا الشعر؟»

استهجن المنظر. كان أبوه يأمره أن يجلب الماء، فيذهب صاغرًا من دون رغبة وتركيز. وكان يرمق الجدْيَ ويحاول تأمّل شعره الأملس ويسأل: أيَعْلم الجدْيُ الصغير أنّ روحه ستفارقه بعد لحظات؟ لعلّه يعْلم، ولذا يبدو القلق والذعر وقد تدفّقا في عروقه، وتصبح نظراتُه ناقمةً على كلّ الناس منذ أن كان في السوق، وسط حشدٍ من الماعز والأبقار والناس والخرفان، وكان يسأل: أيُّ يدٍ ستمسك الحبل الذي يقيّده؟ أيُّ يدٍ ستتفحّص لحمَ ظهره وتختبر ثقله وخفّته ومدى كثرة الشحوم لديه؟ أو يَعلم الآن أنّ هذا هو آخرُ صباح له على الأرض؟ أسيحدث شيء يَحُول دون ذبحه؟

أحسّ مازن أنّ الجدي يحدّق فيه وكأنه يتوسّل إليه أن ينقذه من الموت. لقد فقد أمّه، وربما شاهدها أو سمع أنينها وهي تُذبح. تمنّى مازن ألاّ يكون الجدْيُ قد شاهد أمه تُذبح. إذن.. فقد تقرّر أنّ الجدْي سيؤكل بعد ساعات. سوف يُقطع ويُشوى، وسوف يستحيل إلى لحم بلا عظام. أيعْلم ذلك كلّه؟ السفّاح الذي تآمر مع أبيه يبدو سعيدًا. حملٍ معه كلّ الأشياء الحادّة التي تحفر قنوات الدم، ولبس قميصًا محطّطًا، ولفّ مئزرًا حول وسطه. كانت ملابسُه ملطّخةً بالدماء، كأنّه مرّ على عدّة رؤوس في طريقه إلى هذا الجدْي المسكين. له عضلاتٌ بارزة، ولجسده شعرٌ كثيف. تقدّم ووجّه السكينَ إلى الجدي، وسأل:

– أهذا هو؟

أجاب أبو مازن باستغراب: «طبعًا. لا يوجد غيره هنا.»

فكّ رباطه. جرّه باتجاه شجرة المانحو التي كانت ترتعش خوفًا هي الأخرى. حاول الجدْيُ أن يقاوم. قال الرجل: «هذا الجدي عنيد.» حينها قال مازن في نفسه: «ها أيّها المسكين، أظنّك تأكّدتَ الآن أنّك ستموت. سامحْني. لا بدّ من أن أشارك الرجل وأبي هذه المؤامرة.» أمر الرجل مازن وأباه أن يمسكا رجلي الجدْي جيّدًا. كان الجدي يرفس ويصيح «مباع..عاا..عاا..عا...» وبيدٍ ضخمةٍ أمسك الرجلُ صدغي الجدي، ويدُه الأخرى تسنّ السكين. ثم أبرز رقبته، وتمتم ببعض الأدعية، وبحركةٍ سريعةٍ ذَبَحَه. انبثق شلاّل من الدم ولطّخ مئزر الرجل وملابسَ مازن وأبيه. ثم أمرهما أن يتركا قدميه كي يتمكّن من تحريكهما، ففعلا. طارت روحُ الجدْي. بعد ذلك حمل الرجل الجثّة وربطها منكّسةً في معلاق بأحد أغصان الشجرة البائسة. وضع الرأس في جردل ماء بعد أن ألقمه قطعةً صغيرةً من الحجر. وكان يناول مازنًا وأباه كلَّ قطعة يبترها كي يغسلاها ويضعاها في صحنٍ كبير.

فجأةً نظر السفّاح إلى مازن، وشهر سكينه ناحيته وقال: «إنْ كنتِ تريد أن تلحقه فأنا مستعدّ للمساعدة! ها، ماذا تقول؟ أليس من الأفضل أن تلبّي رغبتي؟ أرجوك أنا لديّ رغبة في قطع رأس إنسان.»

تجمّع حول السفّاح العديدُ من الماعز والجديان، جميعُها يحدّق بغضبٍ إلى مازن الذي أصيب بالذهول والخوف من نظراتها. سأل إنْ كان الرجل يمزح. كان يتقدّم ناحيته، ومازن يتراجع إلى الوراء. وحين تأكّد من نيّته في ذبحه وقف أمامه والعرقُ يتصبّب من جبينه. رفع حجرًا كبيرًا. صرخ: «كفى.. كفى عبثًا.. أيها السفاح. سوف أنال منك.»

كان الرجل يرشّه بالماء على وجهه وهو يقول لأبيه: «هيّا.. أريد نقودي.. تأخّرت.. هناك ثور ينتظرني.»

**٥- ثلاث زجاجات صغيرة.** بينما كان مازن يمشي إلى بيت صديقه ماجد، وقفتْ سيّارة فارهة أمامه، وأطلّ من نافذتها «خلفان،» الرجلُ المعروفُ بثرائه ونفوذه في البلد. ابتسم الرجل ومدّ يدًا مرتعشةً ليصافحه. لاحظ مازن أنها من دون شعر. مدّ مازن يده. عصرها الرجلُ بخفّة. سحب مازن يده بسرعة بعد أن داهمتْه قشعريرةُ خوف. داهمه الرجلُ بالكلام، وتلصّصتْ سنّ ذهبيّة من داخل فمه:

– كيف حالك يا ولد؟

– بخير.

– كيف العيد؟ هل حصلت على عيديّة زينة؟

– يعني.. ويش تريد؟

– أريد منك خدمة وحالك عيديّة كبيرة.

ارتبك مازن وسأل عن أيّة خدمة يريدها هذا الثريُّ من ولد مثله. أجاب الرجل بعد أن خفّف من ابتسامته:

– اسمع، سأعطيك ثلاث زجاجات صغيرة. وسأعطيك عن كلّ زجاجة عشرة ريالات.

اندهش مازن وقال:

– وماذا أفعل بالزجاجات؟ ولمادا تعطيني النقود؟

ابتسم الرجل والسنّ الذهبيّة تشعّ خبثًا من فمه، وقال:

– فقط أريد منك أن تمارس العادة السرّيّة لتملأ هذه الزجاجات. عمليّة سهلة. صحيح؟

توتّر مازن واندهش لهذا الطلب وهذه الجرأة. لقد سمع الكثير عن قصص هذا الرجل، ولكنه لم يسمع هذه من قبل. إلا أنه أمام الثلاثين ريالاً تراجع وقبل الصفقة. فكّر في أنه لن يخسر شيئًا. وحينما أخذ الزجاجات تبدّت السعادة على وجه الرجل، وسطعتْ سنّه الذهبيّة. أعطاه مهلة ثلاثة أيّام لكي يعود مازن بعدها بالإنتاج الوفير، فيسعد الثريّ.

حكى مازن لصديقه ماجد ما حدث. ضحك صديقه وقال:

– في العام الماضي طلب إليّ طلبًا مختلفًا.

– ماذا طلب؟

– أن ألبس فانيله داخليّة لمدة شهر ولا أخلعها أبدًا، مقابل خمسين ريالاً.

– وهل فعلت؟

– نعم.. إنها خمسون ريالاً! لبستُ الفانيلة شهرًا، ولم أستحمّ طوال تلك الفترة، ثم سلّمتُه إيّاها، ففرح بها كثيرًا.

كلّ عيد يفرح بالملابس الجديدة والعيديّة. وكلّما تقدّم العمر اختلف العيدُ وقلّت البهجة. أخذت الأفكار والأسئلة تنبت في عقل مازن: لماذا الشعر الكثيف على ظهر ذلك الرجل؟ وهل ستصبح له غابة كهذه؟ وماذا سيستفيد الرجل الثريّ من محتوى الزجاجات؟ بعد ذلك اليوم بدأ يحدّق في وجوه البشر وأجسادهم: بعضهم بلحيةٍ خفيفة، والآخر حليق اللحية، وآخر تصل لحيته إلى عينيه، وفي مناظر أخرى يشاهد الشعرَ ينمو في الأذنين والأنوف. لاحظ أنّ بعض النساء ينبت شعرٌ فوق شفاههنّ، كأنهنّ رِجال، وبعض الرجال يرى في أياديهم غابة سوداء من الشعر. أصبح يخاف من هجوم الشعر على جسده، أن يتحوّل إلى غوريلا مشعرة. وتذكّر أنه ما زال صغيرًا، وأنه حين يكبر سينتشر الشعر في جسده لا محالة. يرى شعيْرات في يديه، ويرى شاربه ما يزال ينمو. هو لا يخاف من الشارب واللحية (فوجودهما في وجه الرجل طبيعيّ)، ولكنه يخاف من أن يكسو الشعر ظهرَه. وتذكّر يد الرجل صاحب السنّ الذهبيّة وأنها كانت بلا شعر. لماذا؟

**٦– فم مليء بالشعر**. ثلاثة طيور زجاجيّة حملتْ مازنًا إلى أعلى. شاهد مدينةً مغطّاةً بأشجار سود، شوارعُها بيضاء. ولاحظ أنّ المشاة عراةٌ يغطّيهم شعر كثيف، عدا رجل واحد ذي ناب ذهبيّة تطلّ من فمه. كما شاهد الأرصفة سوداء ناعمة. السيّارات مشعرة. البيوت والعمارات بلون أسود. الحدائق مزروعة بالشعر وذات رائحة عفنة. بعد قليل سقط مطر غزير من الشعر، ثم كاد يسقط في بركة مملوءة بمادّةٍ مخاطيّة. بعدها أسقطته الطيورُ في بطن المدينة. داهمه الغثيانُ فحاول الهروب فلم يستطع لأنه أحس بأنّ قدميه ثقيلتان ومشعرتان، وتحوّلتْ تلك المادة في البركة إلى دم ساخن. حاول أن يصرح فلم يستطع لأنه اكتشف أنّ فمه مليء بالشعر وبتلك المادة اللزجة. أحسّ بالضيق، وغرق في كابوسٍ أسود.